العدد الثالث والعشرون
2006

مجلة كلية الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1374 من وفاة الرسول ﷺ الموافق لعام 2006 مسيحي

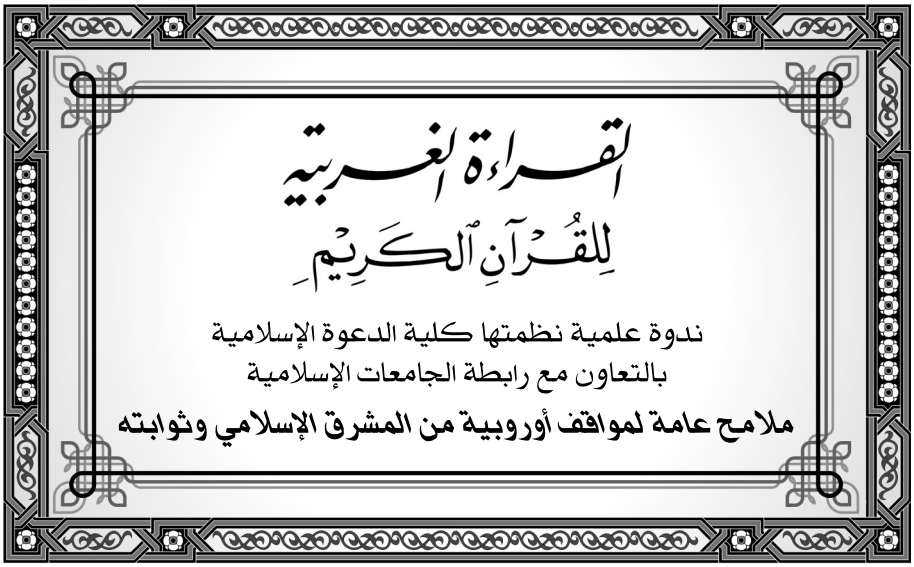

د. مسعود عبد الله الوازني

لم تكن أوروبا في أي مرحلة من مراحل التاريخ على وفاق مع الشرق، واستمر الأمر على ذلك حتى اليوم، ويشهد في القديم ما كان يجري بين فارس والروم من حروب كانت سجالاً بينهما، وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ [الروم 2 ـ 3] وكان الخاسر في كل الأحوال شعوب المنطقة بما كانت تجره تلك الحروب من دمار وخراب للمدنيات والعمران ونهب للممتلكات وإزهاق للأرواح وإبادة للشعوب وحرمان للأجيال من أي نهضة علمية أو ثقافة معتبرة أو تطلع حضاري أو شعور بالأمن والاستقرار.

ثم تضاعف الصراع وازدادت حدته وتصاعدت وثيرته بعد ظهور الإسلام وإسلام فارس بالذات الذي منح شعوب المنطقة قوة وتماسكاً في مواجهة الروم وما صحب ذلك من تحولات كبرى كان من بين نتائجها دحر الروم من المشرق

الإسلامي وملاحقة فلوله في مناطق عديدة في العالم.

وكانت من المنتظر أن تتفهم أوروبا طبيعة الإسلام والأسباب الكامنة وراء قوته الذاتية، ومده المتسارع وخطواته الحضارية المذهلة فتتجه إلى قراءة الإسلام قراءة موضوعية بعيدة عن روح التعصب والانغلاق والأحكام المسبقة ولكنها لم تفعل أي شيء من ذلك، وعزز من تعميق ذلك الرفض ما كانت تشعر به أوروبا من عقدة التفوق والاستعلاء ضد شعوب المنطقة دون أن تفرق بين مسيحي ويهودي ومسلم قبل ظهور الإسلام وبعده. وتضاعف الخطب بعد أن تبنت الكنيسة الغربية معاداة الإسلام وسعت بكل الطرق لإيقاف مده وانتشاره، وعملت على تشويه تعاليمه وتزوير حقائقه.

تم تطور ما كانت تحمله الكنيسة الغربية من توتر نفسي ضد الإسلام إلى أن ظهرت آثاره الخطيرة فيما يعرف بالحروب الصليبية التي قادتها الكنيسة إما مباشرة أو بمباركتها.

وقد عرض محمد علي الغتيت لبعض من تلك الأحداث في كتابه الإسلام والغرب معتمداً في سرد تلك الأحداث على المراجع الفرنسية فذكر أن «لويس التاسع» دعا بعض رجال المغول في 27 ـ 1 ـ 1429م، وفاوضهم على عقد حلف عسكري وتكوين جبهة مشتركة للقيام بأعمال حربية واسعة ضد العرب المسلمين، ونص الاتفاق بين الطرفين على أن تقوم جحافل المغول بتدمير بغداد حاضرة العالم الإسلامي، وأرسل لويس إلى أمير المغول هدايا فاخرة حملها إليه الوفد برئاسة الراهب الدمنيكي «أندريه دي لونجيمو» وكان من بين هذه الهدايا قطعة من الصليب المقدس وصور للعذراء ونماذج صغيرة لمجموعة من الكنائس.

وقد تكفل المغول بتحقيق تلك المهمة التي قدر من قتل فيها من المسلمين بنحو مليون وستمائة ألف نسمة، ونهبت فيها القصور العامرة، وخربت المساجد والمدارس والمكتبات، كما احمرت مياه النهر عدة أميال لغلبة الدم عليها، واسودت بعد ذلك لفداحة ما ألقي فيها وأحرق من مخطوطات، ومؤلفات هي حصاد العقل البشري من نتاج فكري وعمل إنساني، وأتت الفوضى على حضارة أنارت المشارق والمغارب.

وعلى الرغم مما لحق البشرية من خسارة فادحة فقد ظلت أوروبا تفخر أنها استطاعت أن تجنب نفسها أهوال الغزو التتاري وتحوله إلى القضاء على بغداد والأمة الإسلامية، وهو الهدف الذي فشلت الجيوش الصليبية من تحقيقه[1].

وكان يمكن أن تلقى بقية البلدان الإسلامية المصير نفسه الذي حل ببغداد وفق تلك الخطة المعدة لولا هزيمة التتار في معركة عين جالوت وقتل قائد تلك الجيوش المسيحي «كيتبوكا» وتطهير منطقة الشام من أولئك الغزاة. ومع ذلك فلم يهنأ للغرب عيش أو يطمئن لهم بال إلا بعد أن أعادت هي نفسها الكرة واحتلت العالم الإسلامي كله وعملت على تطويقه، وإيقاف عجلة تقدمه وتمزيق وحدته وتقسيمه. وفرض مناهج فكرية متعددة وقوانين متباينة حتى يصعب توحده من جديد.

وقد شهدت المنطقة بأسرها سنوات عجافا قبل دحر الغزاة واستقلال شعوب المنطقة من المحتلين، ومع ذلك فقد ظل الغرب على حاله لم يتعلم من دروس التضحية والفداء التي لقنها شباب الأمة العربية في تلك المعارك الطاحنة جيوش الاحتلال، ولم توقفه عند حدوده ما تكبده من خسائر في الأرواح والأموال أو تحدَّ من أطماعه فيغادر المنطقة إلى غير رجعة،وإنما استمر في خلق الذرائع لتطويق العالم الإسلامي من جديد وبخاصة بعد ظهور الثروات الطبيعية في أرضه وهو العامل الأضعف إذا ما قورن بالعامل الديني الذي لا يزال يغذي التناقض القائم بين الغرب والشرق، وربما لم تبلغ حدته الدرجة التي آل إليها الأمر بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، إذا لم يخطر ببال أوروبا ومن ورائها أمريكا أن يجرؤ أحد من شعوب المنطقة على مهاجمة الغرب في عقر داره. وعلى الرغم من أن العالم الإسلامي قد استنكر ذلك الحدث المشين واعتبره

---

(1) نبعت فكرة الحروب الصليبية من الكنيسة الغربية وهي التي أمدتها بتأييدها الأدبي والمعنوي وشجعت كافة الأوروبين على الاشتراك فيها، وعينت ممثلاً لها يسمى مندوباً باباوياً للاشراف على الحملة، ينظر أثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية ط1/ 1996م جامعة قاريونس بنغازي ص195. نقلاً عن جوزيف نسيم، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى ص68.

عملاً إجرامياً فلم يشفع كل ذلك للعالم الإسلامي وأصبح الغرب يتهم المسلمين جميعاً دون تقدير لما قدموه من مشاريع حضارية عبر التاريخ وهو ما جعله يقلب للمسلمين ظهر المجن ويلجأ إلى لون مبتكر ربما لم يكن معهوداً من قبل بصورة واضحة ويبدو ذلك في اللجوء إلى نوع جديد من الحروب تستهدف أساساً مهاجمة العقائد والأفكار والأديولوجيات، وهي حرب تفوق حدةً وعُنفا ما سبقها من حروب هجومية وتدمير متعمد.

وقد بدأت تهب تلك الرياح الهوجاء على المنطقة بتيارات متعددة منها: ما يكال للإسلام من اتهامات مختلفة، وتحريفات متعمدة الإسلام وقراءات خاطئة لنصوصه الصريحة: وتجلى ذلك في فرض لون جديد من التأويل يتفق مع فكرة ادعاء التحديث بدءاً من الدعوة إلى تغيير المناهج وفرض لون جديد من الفكر يتناقض مع الجذور التاريخية الراسخة والتقاليد العريقة في حياة شعوب المنطقة وحرمانهم من الخصوصية الثقافية المتميزة ومروراً بمحاولاتهم تغريب الذات العربية وتجريدها من هويتها القومية الإسلامية وحتى المسيحية، وانتهاء بمهاجمة الثوابت مرة بمحاربة التراث والتقليل من أهميته وتغليب العصر على النص وأخرى بحذف آيات من القرآن الكريم وثالثة باختلاق مصحف جديد تحت ما يسمى بفرقان الحق. وضاعف من تنكرها للإسلام ضعف الأمة الإسلامية، وتراجع الدور الحضاري والقيمي في حياة المسلمين وظهور اتجاهات متطرفة، وعقول متحجرة اختزل بعضها الإسلام في أمور هامشية، وتأثرت فئات أخرى بمرجعيات قديمة، وثقافات وافدة كانت سبباً في إعطاء صورة باهتة عن حقائق الإسلام، وجرف التيار المادي المعاصر فئات أخرى تجاوبت مع التيار الجديد فأقدمت على فتح ثغرات في جدار الإسلام وثلما في تحصيناته بلون من الكتابات والدعوات يغلب عليها طابع الالتقاط الفكري والدس الخفي والمعلن دون أن يدرك أمثال هؤلاء أن ما يروجون له من أيديولوجيات لا يمكنها أن تصمد أمام حقائق الإسلام وتشريعاته المتميزة بالسعة والشمول، وقبول مبدأ الحوار مع المتغيرات، دون إلغائها، واحترام ذات الإنسان والحفاظ على هويته والحيلولة دون تفريغ الذات من هويتها الإنسانية ومقاومة الانجذاب الكاذب نحو النواحي المادية.

وحتى إذا عُدّ ما تقوم به أوروبا من معاداة الدين أمراً منطقياً بسبب ما تعرضت له شعوبها في القرون الوسطى على يد الكنيسة من اضطهادات وظلم والتصدي بكل عسف للحركة العلمية والتنكيل بالعلماء واتهامهم بالهرطقة وقتلهم ومصادرة مؤلفاتهم وحرقها وما عمقتة الأقلام الإكليروسية ضد الإسلام من كراهية، فكيف يمكن لمن يدعي الإنتماء إلى الإسلام أن يجدف خارج إطاره إرضاء للغرب واستمالة له على حساب دينهم دون وعي منهم بما ورد في الآية الكريمة ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: 120]؟ بل لن ينظر إليهم الغرب نظرة تقدير أو مساواة في ضوء عقدة الاستعلاء التي يشعر بها ضد شعوب المنطقة.

وهنالك فئات أخرى يبدو أمرها أكثر غرابة لأنها منحت مقاليد أمورها للغرب فتدخل بدوره في تشكيل عقولها فلم يعودوا صناعة البيئة الإسلامية وإنما أصبحوا صناعة أوروبية أمريكية أعدهم الغرب ليكونوا أعداء لأمتهم قبل أن يكونوا أعداء لغيرهم وفرغهم من أي محتوى إنساني وقيمي وكون منهم بؤراً للتوتر شغل بهم العالم الإسلامي في المرحلة الأولى عن البناء واتخذهم في المرحلة اللاحقة ذريعة لشن غاراته على العالم الإسلامي مرة باسم تحقيق الديمقراطية وأخرى بالحرب على الأرهاب واتهام الإسلام بالأصولية وتكوين إرهابيين حتى يسهل تفريغ الإسلام من أي محتوى ثقافي أو مشروع حضاري وإظهاره في النهاية بمظهر العجز وتركه عقيدة محنطة لا تحرك ساكناً.

لا أحد كان ينتظر من المسلمين أن يصبحوا أعداء لأمتهم وللإسلام في الوقت الذي كنّا ننتظر من الغرب أن يراجع نفسه وأن يتوقف عند ما كتبته ثلة من علمائه الذين أنصفوا الإسلام وأشادوا بدوره كأعظم رافد من روافد حقوق الإنسان عبر إلى المجتمعات الغربية وأحدث هزة عنيفة في الكنيسة ذاتها وحرك إرادة المفكرين والفلاسفة وجعلهم يثورون على واقعهم ويطالبون بإنقاذ الإنسان الأوروبي من تسلط الحلف الثلاثي الظالم العرش والاقطاع والإكليروس.

كما اعترفوا بفضله في تطوير الفكر الإنساني وبأياديه البيضاء في بلوغ

الحضارة العالمية مداها الذي وصلت إليه[2] وذلك بما أسهم به العرب في اكتشاف قوانين المادة عن طريق التجربة والملاحظة بل لا يعرف التاريخ أمة اهتمت بالعلم في عصورها الزاهرة بالآداب والفنون وسائر الميادين العلمية سوى أمة العرب لأن الثقافة كانت جزءاً من حياتهم[3].

سوف تدرك أوروبا ومن ورائها أمريكا بعد فشل تجاربها وقوانينها الوضعية وتعلقها بفلسفة عدمية أماتت في نفوس أبنائه عاطفة الرحمة الإنسانية أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يصوغ وجدان الإنسان صياغة تجعله عندما يتألم يكون ألمه ألم الإنسان وامنياته أمنيات الإنسان وحيرته وسعيه من أجل الإنسان، وأن يصطبغ حبه وعداؤه بصبغة إنسانية، وتبعاً لذلك يكون أحب شيء إليه العلم والثقافة والصحة والرفاة والحرية والعدالة للجميع، وأعدى أعدائه الجهل والفقر والظلم والمرض وخنق الحريات والتمييز العرقي أو اللوني أو الجغرافي، وأن يكون التعاون بين الجميع قائماً على أساس المصالح المتبادلة والحق والعدل ونصرة المستضعفين في الأرض ورفض الضن بالفكرة التي تسهم في نفع البشرية، ويرفض المدنية القائمة على الدولار واليورو والجنيه ما لم تسخر هذه العملات لخدمة البشرية وانقاذه من تخلفه ومرضه وفقره، وإخراجه من عزلته إلى فضاء فسيح ترى فيه البشرية أسرة واحدة متضامنة.

تلك هي وظيفة الدين القيم، أما ما يرى عليه العالم من تخبط وما يجري في محيطه من ظلم يشعر بأن البشرية فقدت هويتها وجعلتها تنجذب انجذاباً كاذباً نحو المدنية المعاصرة خارج محيطها الإنساني، وان جميع محاولاتها في إيجاد حياة آمنة مستقرة قد باءت بالفشل، ولم يعد لديها من التجارب والقوانين ما يمكنها من الخروج من هذه الأزمة الحادة ما لم تحتكم إلى الإسلام وقد أجاد (برناردشو) في وصفه الذي جاء فيه: «أن العالم اليوم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكيره مثل (محمد) هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والاجلال لأنه أقوى دين

---

(2) الإسلام والحضارة العالمية. أ. محمد أبو الفيض المنوفي. سلسلة البحوث الإسلامية الخامسة العدد 66 ط/ غرة شعبان 1393هـ أغسطس 1973م ص6.

(3) المصدر السابق ص19.

على هضم جميع المدنيات، وأنه خالد خلود الأبد وإني أرى كثيراً من بني قومي العلماء قد دخلوا هذا الدين على بينة من أمرهم، ومستقبلاً سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في سائر القارة» يعني بها قارة أوروبا[4].

وفي ضوء هذه الحملة المتصاعدة والأزمة المفتعلة التي يقود لواءها الغرب ضد هوية العالم العربي عموماً وثوابت الإسلام على وجه الخصوص فقد رأت كلية الدعوة الإسلامية بالتعاون مع رابطة الجامعات الإسلامية ألا يكون دورها في مواجهة هذه الأحداث المؤلمة دور الشرطي الذي يقف في وسط الطريق والسيارات تمر من شماله وعن يمينه وهو في وضع ثابت.

وإنما أرادت أن يكون لها دور فعال ومؤثر للرد على ما يكال للإسلام من تهم باطلة، وما يصاغ من افتراءات ومزاعم مختلفة، وما يرمى به القرآن الكريم على وجه الخصوص من تناقض، وأقوال مفتراة، وما ينسب إليه من شبه ونقول تخلو من أي توثيق، وما يبذل من محاولات لإفراغ النص من معاني محددة أو دلالات ذات بعد فكري معين، وجعله قابلاً لإسقاط تصورات تنبع من مدارك القارئ وتأويلاته الخالية من أي مضمون أو مستوحاة من مرجعيات غريبة. ولذا فقد تعاونت كلية الدعوة الإسلامية مع رابطة الجامعات الإسلامية، واقامت ندوة علمية تحت عنوان القراءة الغربية للقرآن الكريم تتضمن جملة من المحاور:

1 ـ التعامل الغربي مع القرآن الكريم رؤية تاريخية.

2 ـ التعامل الغربي مع القرآن الكريم رؤية واقعية.

3 ـ منهجية التعامل الغربي مع القرآن الكريم.

4 ـ كيفية التعامل الغربي الديني والسياسي مع القرآن الكريم.

5 ـ دور الجامعات الإسلامية في تصحيح المفهوم الغربي عن القرآن الكريم.

وقد حضر هذه الندوة ثلة من ذوي الكفاءات العلمية العالية والأقلام الحرة والضمائر اليقظة للرد بكل موضوعية على الدراسات والترجمات التي يقوم بها الغرب ومن يسير في ركابه من غير ضوابط موضوعية، أو منهجية علمية للنيل

(4) المصدر السابق ص33.

من قدسية القرآن الكريم من ناحية ودعوة هؤلاء من جديد إلى تصحيح مفاهيمهم الخاطئة عن الإسلام وفق معطيات العلم الحديث الذي كشف عن سلامة النص القرآني وقدسيته وصدق منهجه الذي سيكون هو الملاذ الأخير للإنسان بعد أن أثبتت الدراسات فشل جميع تجاربه قديماً وحديثاً، ولم يعد قادراً على تحقيق أمنه وسعادته في ظل النزعة المادية التي فرغته من هويته الإنسانية وأدخلته نفقاً مظلماً لا منقذ له مماهو فيه من ضياع سوى الإسلام.

وليس من الحكمة في شيء أن تنسى أوروبا أن ما تشعر به اليوم من فخر واعتزاز وما تتباهى به من تقدم علمي وتقني لم تحققه بسواعد أبنائها أو تصل إليه بفضل تجاربها وحدها وإنما هو ثمرة جهود مضنية وأعمال متواصلة يعود الفضل فيها إلى العقل العربي المسلم الذي اكتشف السنن الكونية وأماط اللثام عن حقائق الوجود ومهد السبل أمام البشرية إلى شق طريقها نحو ما تشهده حركة العلوم من ازدهار وتقدم، وبما أحدثه من ثورة على المنطق الأرسطي الذي كبل العقل الأوروبي ما يقرب من عشرة قرون وقدم التجربة والاستقراء الناقص بديلاً عنه وكانت تلك البدايات هي الأساس لكل ما تحقق بعد ذلك من رقي حضاري «ويوم يسترد هذا العقل الجبار شخصيته الإسلامية التي بها ساد تفوق وأثر سيعود عملاقاً سيداً رائداً عالمياً يقود ولا يقاد، ويحدوا قافلة العالم في طريقها اللاحب نحو دين العالمية وخاتم الرسالات»[5] وأن لحظة الانكسار الحالي هي لحظة من لحظات التاريخ.. والتاريخ يجب الأخذ به في صيرورته وليس في لحظته المثبتة المجمدة التي يقوم جوهرها على التكرار وتكرار المقابل وإعادة إنتاجه[6].

وحتى لا يحرم القراء من البحوث التي ألقيت في الندوة العلمية سوف تتولى هذه المجلة نشرها تباعاً، ومنها هذا البحث الذي ألقاه أ.د. محمد الدسوقي بعنوان منهج الفكر الاستشراقي في تفسير القرآن الكريم خصائصه وآثاره والذي تضمن المحاور الآتية:

1 ـ مصدر القرآن الكريم.

---

(5) المصدر السابق ص5.

(6) الزمان التاريخي من التاريخ الكلي إلى التواريخ الفعلية، ط1/ 1991 دار الطليعة بيروت ص50.

2 ـ محتوى القرآن الكريم.

3 ـ تاريخ القرآن الكريم.

4 ـ لغة القرآن الكريم.

وقبل استعراض هذا البحث فإن كلية الدعوة الإسلامية لتنوه بقيمة هذا الجهد العلمي لما يتميز به من سرد تاريخي منصف ووعي بواقع الأمة الإسلامية وإدراك لمنابع قدرتها المتمثلة في تدوين القرآن الكريم وحفظه، وتتبع دقيق لأعمال المستشرقين بكل دقة وأمانة علمية وموضوعية وحياد إيجابي ونسق فكري محدد في خصائصه وأفكاره.

يقول الأستاذ الدكتور محمد الدسوقي في مقدمة بحثه: لقد انطلق الفكر الاستشراقي في دراساته القرآنية من مبدأ الاعتقاد ببشرية القرآن، ومن هنا أخذ يتلمس له مصدر آخر غير الوحي الإلهي، وتكاد كل الآراء التي صدرت عن المستشرقين في هذا ترجع مصدر القرآن إلى عاملين رئيسين: أحدهما داخلي، والآخر خارجي.

ويراد بالعامل الداخلي البيئة الجغرافية والحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للعرب.

وأما العامل الخارجي فيراد به اليهودية والنصرانية ومعتقدات الأمم الأخرى وعاداتهم.

إن من المستشرقين[7] من ذهب إلى أن القرآن قد تأثر في بنائه العقائدي بهجير الصحراء ورمالها وأعرافها، كما أنه تأثر أيضاً بتنوع البيئة بين مكة والمدينة حيث اتسم الأسلوب القرآني بمكة بخصائص تختلف من خصائص القرآن المدني.

ويقول المستشرق «جب»: «إن محمداً ـ ككل شخصية مبدعة ـ قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار العقائدية السائدة في زمانه والدائرة في المكان الذي نشأ فيه.

---

(7) انظر تمهيد التاريخ الفلسفة الإسلامية للشيخ مصطفى عبد الرزاق، ص85 ط/ القاهرة.